نفحات القرآن

سلطان الأمة منوط باستقامتها ودوام النعمة رهين بصيانتها

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

> ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم : . وأن الله سميع عليم .

١ — الله سبحانه - يضفى على الأمة جانبا من تأييده ، ويمنحها حظا من سلطانه فتكون لها شخصية ومهابة ، ويعز شأنها ، وتستقر سيادتها فى رعاية الله ما دامت على الجادة ، وغير ملتوية فى مسالكها عما رسم الله من شئون دينه ودنياه فى محيط الأمة . وفى علاقاتها مع الغير . والله سبحانه يمنح الأفراد كذلك من فضله ، ويحفظ عليهم نعماءه ما دامت النعمة فيهم مرعية الجانب ، ومحفوفة بالتقدير ، والحمد وحسن التصرف.

وقد عاهد الله خلقه على أنه لا يسلبهم نعمته ، ولا يبدل من عطائه إلا إذا كانت الإساءة منهم إلى أنفسهم .

فحينذاك يكونون رافضين لما منحهم ، ومعرضين عما نصحهم ، فلا يكونون أهلا لما تفضل به عليهم .. وهذا هو قوله سبحانه : « لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » .

ونحن فى عالم فسيح الأرجاء ، تتناوبه صروف القدر ، وتتماوج فيه أحداث الزمن ، وهو فى طريقه يستقبل جديدا ، ويودع قديما ، إلى أن يستقر الركب على أى نحو يشاء الله.

والله تعالى - يحبب إلينا دائما أن نعيش على الهدى . وأن نلتمس الخير من سبله عامة ، لندرك حظنا من دنيا ، وليكون الخير بعدها موصولا بما هو خير منه ، وأبقى فى حياة الخلود .

٢ — وكان من فضل الله على الناس أن يمنحهم العقل ليفكروا ، والوعى ليتدبروا ، وأضفى عليهم نعمة العلم ، والرزق ، والصحة ليسلكوا سبلهم عن بينة إلى خير ما دعاهم إليه وبين لهم أن الإحسان منهم إحسان إلى أنفسهم .. وأن الإساءة منهم إساءة إليها ،

وأن ما يصيبهم من سوء فهم الكاسبون له ، وما ينالهم من جزاء فما ظلمهم الله فيه .

وهذه شرعة الله مع عباده قديما وحديثا .. فماذا كان ؟ .

٣ — كانت للناس مسالك متباينة، وتقلبات مضطربة ، وعلاقات غير وحيمة فيما بينهم وخصومات لديهم ، ومقاومة كريهة لدعوة رسلهم .

وهكذا ضلت فيهم عقول ، وعميت منهم بصائر ، فتجاهلوا ما عرفوا من شرائعهم ، وانحرفت بهم النعمة ، ومردوا على شقاق وضلالة .

وماذا يستحق الماكر غير هوان به ، وسلب نعمته بعد توافرها ، وكسر شوكته بعد قوتها ؟ ؟ وإذلال نفسه بعد جبروتها ؟ ؟

هكذا كانوا ، وهكذا صنع الله بهم .

نجى الله من بينهم أنبياءه وأتقياءه ، ثم سلط على الآخرين بلاءه ، فأهلكهم بالصيحات ، والصواعق الماحقات ، وبالخسف ، والمسخ ، وبالريح العاتية ، والإغراق المبيد ، وأذاقهم من بأسه ما لم يكن لهم فى حساب .

وتلك عدالة الله مع خلقه ، وحكمته فى تدبير ملكه .

ثم ماذا يستحق من الله من أحسن الله إليه فأساء ، ووعده بالخير فكذب وعده ؟ وأوعده بالشر فاستهان بوعيده ؟ ؟ ذهبت ريحهم ، وخلت منهم ديارهم ، وباءوا بشر ما يبوء به من دخل دنياه رابحا ، ثم خرج منها خاسراً ، واندحر على هوان ، وليته لم يكن فى الدنيا شيئا مذكوراً .

تلك أمم : انفرجت لهم حياتهم واتسعت لجاج دنياهم ، وكان لهم سلطان ومتاع ، فما بقى لهم غير ذكريات سيئات ، وما ورثنا عنهم سوى العبرة بهم ، والتخويف من عقباهم إذا غيرنا ما بأنفسنا كما غيروا ، فإن سنة الله قائمة ، وقدرته متمكنة .

ونحن عباد مثلهم ، ولسنا أعز على الله منهم إلا بتقواه ، وباتخاذ سبلنا فى الحياة على هداه .

ورحمة الله لمن يهتدى بهديه ونعمته تدوم مع من يرعاها بالأمانة عليها ، وحسن تصرفه فيها « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » .

٤ — والدنيا عند الله هينة ، وهو يعطيها لمن يحبه ولمن لا يحبه ولا يضيره — سبحانه — أن تظل نعمته عند من يعصيه ويبقى السلطان عند من لا يتقيه .

ولكن حكمة الله تترك الدنيا لمن لا يستحقها ناعما فيها ، حتى يتم اختباره بها ، ثم يكون زوالها وبالا عليه ، وحسرة له .

ومن أجل ذلك التدبير تراها دولة بين الناس — ويغير الله من حال إلى حال ... فقوم كانوا على صلاح ثم أفسدوا ، وعلى

عدل ثم جاروا ، وعلى تناصح ثم جحدوا وعلى حياء ثم تبجحوا . وعلى قناعة ثم جشعوا ، وعلى اجتهاد فى حياتهم ودنياهم ثم تواكلوا هؤلاء جميعا غيروا ما بأنفسهم ، فغير الله ما بهم من صنوف نعمائه .

ورب قوم على فساد وضلال ثم ازدادوا وتمادوا ، فهم كذلك غيروا ما بأنفسهم من قبيح إلى أقبح وإن كانوا من قبل فى مهلة من وعيد الله ، فإن الله لا يطيل إمهالهم بل يلاحقهم بما يزعزع أمنهم وينتقص من راحتهم . ويهز من كيانهم ، ويسلط عليهم من غصص الحياة وأكدارها ما يبدلهم سوءا بعد حسن ، وشرا بعد خير . وشؤما بعد رجاء .

وكذلك كانت قريش ... عاشوا فى رخاء وتمجدوا بعصبية وأنساب . وتمتعوا فى شموخ وأنفة ، وكان فيهم كفر ووثنية ، غير أنهم كانوا فى مهلة ، وفى شبه معذرة ، لأن رسولا لم يأتهم ، ولأن دعوة لم توجه إليهم ، وكانت لهم مع الكفر والضلالات مبرات خلقية كريمة ، كصلة الأرحام ، والوفاء بالعهد وحماية الجار ، وإغاثة الملهوف ، وسجية الكرم . والإيثار .

وإزاء هذه المبرات مع وثنيتهم كانوا فى مهلة من تغير الحال بهم ، وفى هدوء من التهديد والتشنيع وافتضاح أمرهم .

٥ — فلما جاءهم رسول منهم ، ووجهت إليهم دعوة ، وقامت عليهم حجته غدروا بالقرابة . واحتقروا الرحم التى بينهم وبينه وتخلفوا عن عصبيتهم للحق ، فى سبيل اعتصامهم بالباطل ، وأنكروا محمداً وهو من صميمهم ، وأكرمهم نسبا فيهم ، بل هو كما هتف فيهم أرحم بهم من أنفسهم ، وهو أصدق من عرف بالصدق فيهم ، وأوفى من عرف بالأمانة بينهم .

نكلت قريش عن دعوته ، ولم يشكروا نعمة الله بهدايته .

فكان هذا مناقضا لما عرف عنهم من مؤازرة العصبية ، ومنافيا لما عهد فيهم من عرفان الجميل . طاشت عقولهم ، وضلوا سبيلهم فبدل الله أمنهم خوفا ، وراحتهم شقاء ، وأصبحت كثرتهم فى تناقص ، وسيادتهم فى أفول ، وصارت تلاحقهم الهزائم ، وتهز من كيانهم النائبات ، وتطوى من وجاهتهم فضائح سيرتهم مع خير رسول بعث منهم وإليهم . وإلى الناس جميعا .

أولئك قوم أتيح لهم أن يهتدوا بهدى رسول الله ، وأن يسودوا فى ظل دين الله ، وأن يعظموا بالعلم ، ومدنية الإسلام ، وأن تدوم لهم المكانة المرموقة لهم وزيادة ، وأن يتصل مجد عروبتهم فى الجاهلية بمجد عروبتهم فى الإسلام ، وفى ظلال القرآن .

فلم يكن منهم إلا نكوص ، وإعراض ، ولجاج وعناد ، وطغيان وجلاد فى سبيل الباطل والسير فى جند الشيطان .

وما كان رسولهم يسألهم على دعوته لهم أجرا غير المودة منهم فى القربى التى تجمعهم .

قوم نبذوا ما كان يليق بهم ، وآثروا ما كان قبيحا منهم ، لا يستحقون إلا أن تجبهم لهم الحياة ، ويكون الدين الجديد حربا على جبروتهم ، وشؤما على مطامعهم ، وناسخا لسلطانهم ، ونذيراً لهم بالعذاب فى أجرامهم .

٦ - وهذا جانب من تغيير الله لما كانت تحظى به قريش قبل تمردها على ربها وهكذا رسم الله للأمم فى تعاقبها أن تعتبر بمن سبقها ودعاها أن تدرك نفسها من مفاتن دنياها ، وأن تتفادى العاقبة التى ترى فيها غيرها .

ولم يكن باقيا بعد أولئك سوى أمة دعاها محمد بن عبد الله ، وليس بعده من داع جديد .

ونزل عليه القرآن من عند الله ، وليس بعد القرآن من مزيد .

فآمنت به طائفة ، وبقيت طوائف أخرى كذبته ، وعاشت فى غير استجابة له ، فهل يفلت المخالفون له من هوان الله وإن أغراهم الإمهال ؟ ؟ لا ! !

إن لله موعداً لن يخلفه ، وما يغيب عن وعينا اليوم سيصبح أمراً مقضيا .

ثم انظر : تجد أن الأمة المستجيبة لمحمد أصابت خيراً كثيراً يوم كانت على عهدها مع الله ورسوله .

ولكنها تراخت من بعد ، وتلهت عن مناهج دينها ، وانغمست فى جهالة ، وركنت إلى كسل فى شئونها ، وأرخصت مجدها فنزلت لغيرها عما كان بيدها من سلطان بالدين ، وتسابق فى العلم ، واعتزاز بالخلق .

وأخيراً تهافتت أمم مسلمة على السير فى ركاب المخادعين ، طواعية للأهواء .

وبقدر ما تساهلت فى مقوماتها كان تخلفها عن مكانتها حتى أصبح الإسلام غريبا فيهم ، ومحاربا منهم .

ولا يزال القرآن ينادى فيهم ، ويستنهض همهم ، ولعل الله يعفيهم من هذا الامتحان ، ويوفقهم لخير ما يكون .

ولعلهم يدركون أن أجدر الناس بالحرص على مجدهم ، وإحياء تراثهم هم الذين تنطوى قلوبهم وتلهج ألسنتهم - بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، فتلك أصدق كلمة تجرى على لسان .

وهى أقوى عهد بين الله والإنسان .

وهى شعار الحياة البالغة منتهى الكمال .

وفى طيها رموز واضحة لكل ما يبتغيه الدين والدنيا من الآمال - وفق الله الجميع .

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء